معجم "المصباح المنير"

ومكانته في المكتبة اللغوية العربية

أ.عبد السلام نجاتي

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة منتوري / قسنطينة

مؤلف هذا الكتاب هو العلامة أبو العباس أحمد بن علي المُقْري الفيّومي، المتوفّى سنة 770 هـ.

نشأ بمنطقة الفيّوم بمصر، ثم غادرها إلى القاهرة لمُتابعة تحصيله العلمي، وبها اتّصل بعالم عصره ـ نزيل مصر المحروسة ـ الشيخ أثـــير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، المتوفى بالقاهرة سنة 745 هـ وعنه أخذ العربية، ليتميز بها بعد ذلك، ويصبح أحد أعلامها المشهورين.

ثم رحل إلى حماة بسوريا حيث استقر به المقام، وبها ذاع صيته، وعرفت مكانته العلمية. لذلك لا نستغرب اختياره للإمامة والخطابة بجامع الدهشة، وهو مسجد أنشأه الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمد الأيوبي (672 - 732 هـ)، بمدينة حماة التي وَلِيَها من سنة 721 إلى سنة 732 هـ . وخلال هذه الفترة، اشتهر الفيومي باسم خطيب الدهشة، لتميّزه العلمي وشهرته الخطابية .

قصة المصباح المنير

لم يكن هدف الفيومي في بداية تأليفه إخراج كتاب مختصر في اللغة، يستفيد منه الدارسون المبتدئون، فما قصة هذا الكتاب إذا ؟

لعل إيراد اسمه كاملا يُنير لنا جوانب من هذه القصة، فقد سمّاه الفيومي "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي"، فالمعجم في الأصل هو شرح لألفاظ اشتمل عليها ـ كتاب ـ في فقه الشافعية.

فقد ألف حجّة الإسلام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ) كتابا في فروع الشافعية سمّاه "الوجيز"، وهو أحد كتبه الثلاثة في فقه الشافعية (الوجيز والوسيط والبسيط)، ثم جاء بعده الرافعي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم (ت 623 هـ) فشرح كتاب الغزالي "الوجيز" في مصنّف سمّاه : "فتح العزيز في شرح الوجيز" المعروف بـــ" الشرح الكبير"، ولّما اطّلع الفيومي على

هذا الكتاب "فتح العزيز"، وجد أنّ به مادة لغوية تحتاج بدورها إلى شرح، فاستخرج هذه المادة وشرحها وأضاف إليها ما رآه نافعا ومفيدا، حتى صار كتابا مُطوّلا؛ وفي ذلك يقول الفيومي : "فإني كنت جمعت كتابا في غريب شرح الوجيز للإمام الرافعي، وأوسعت فيه من تصاريف الكلمة وأضفت إليه زيادات من لغة غيره ومن الألفاظ المُشتبهات والمُتماثلات ومن إعراب الشواهد وبيان معانيها، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجة الأديب الماهر."[1] ولكن بعد تأمل في هذا الصنيع، رأى الفيومي أن يسلك طريق الإيجاز، فاختصر عمله المُطوّل، واختار له الترتيب الهجائي الشائع، وأخرجه في هذا السّفر المركّز، والذي سمّاه " المصباح المنير في غريب الشرح الكبير". يقول الفيومي في ذلك : "قسّمت كل حرف منه باعتبار اللفظ إلى أسماء مُنوّعة إلى مكسور الأول ومضموم الأول ومفتوح الأول، وإلى أفعال بحسب أوزانها، فحاز من الضبط الأصل الوفيّ وحلّ من الإيجاز الفرع العليّ، غير أنه افترقت بالمادة الواحدة أبوابه، فوعرت على السالك شعابه، وامتدحت بين يدي الشادي رِحابُه، فكان جديرًا بأن تنبهر دون غايته، فجرّ إلى ملل، ينطوي على خلل، فأحببت اختصاره على المنهج المعروف، والسبيل المألوف، ليسهل تناوله بضمّ مُنتشره، ويقصر تطاوله بنظم مُنتثره ... ".[2]

فالمصباح المنير إذا، من المعاجم الموجزة، اهتم فيه المؤلف بالاصطلاحات الفقهية، لأنه هدف من تأليفه شرح ألفاظ "شرح الوجيز "كما سبق ذكره، لذلك صنّفه صاحب "معجم المعاجم" ضمن معاجم المصطلحات.[3]

ولكن من أين استقى الفيومي مادته اللغوية في شرح الألفاظ؟ وردت الإجابة عن ذلك في خاتمة الكتاب، حيث ذكر أنه قد جمع أصله من نحو سبعين كتابا ما بين معاجم وموسوعات وكُتب تفسير ونحو ودواوين شعر. يقول في ذلك : "وهذا ما وقع عليه الاختيار من اختصار المطوّل، وكنت جمعت أصله

من نحو سبعين مُصنّفا ما بين مُطوّل ومُختصَر، فمِن ذلك التهذيب للأزهري... والمُجمل لابن فارس وكتاب مُتخيّر الألفاظ له، وإصلاح المنطق لابن السّكّيت وكتاب الألفاظ وكتاب المذكر والمؤنث وكتاب التوسعة له، وكتاب المقصور والممدود لأبي بكر بن الأنباري وكتاب المذكر والمؤنث له، وكتاب المصادر لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري وكتاب النوادر له، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وديوان الأدب للفارابي، والصحاح للجوهري... ومِن كُتبٍ سوى ذلك... مما تراه في مواضعه..."[4] ؛ فالكتاب إذا مستخلص من أهم مصادر اللغة العربية وآدابها.

وما زاد من قيمته ـ في هذا المجال ـ أن الفيومي ألحق به دراسة موجزة ومركّزة ضمّت ذخيرة علمية لا يستغني عنها الباحثون في علوم اللغة العربية، هما مسائل من النحو والاشتقاق والتصريف والمصادر والجموع والتذكير والتأنيث إلخ...، حيث جاءت القواعد العامة لهذه المسائل مبوّبة ومنظمة في أسلوب ميسّر موضّح في خاتمة الكتاب.

منهج المصباح المنير

قبل تفصيل الحديث في منهجه، ينبغي التذكير بأن الدارس يحتاج "لحل مشكلاته اللغوية في كثير من الأحيان إلى الموجزات التي يخفّ حملها، ويسهل استعمالها، فإن أعجزه الوصول إلى ما يبغي اضطرّ إلى اللجوء إلى الموسوعات ليجد فيها طلبته. ومن الموجزات التي حظيت باهتمام القارئ العربي الموجزات التي اقتبست من كتاب الجوهري، ومن أشهرها مختار الصحاح للرازي (ت بعد سنة 691 هـ)، وقد سار على طريقة الجوهري في تنظيم أبوابه وفصوله وترتيب مواده. وهناك موجز نال الشهرة كذلك، ولكنّه لم يقتبس من الجوهري وحده،

كما لم يَسِر عـــلى طريقته ونهجه، وإنما اتّخذ المنهج الذي بدأه البرمكي، وشهره الزمخشري. وأعني بهذا : كتاب المصباح المنير الذي ألّفه... الفيومي".[5]

إذا شهرة المصباح المنير تعود في جانب منها لكونه معجما موجزا، سهل الاستعمال، لكن هناك جوانب أخرى ساهمت في تسليط الضـــوء عليه، ومنها في هذا السياق انتماؤه لمدرسة معجمية تضع الكلمة تحت حرفها الأول بعد تجريدها، والتي ظهرت بواكيرها في "كتاب الجيم" لأبي عمرو الشيباني (ت 206 هـ)، ثم في معجم "مقاييس اللغة" لأحمد بن فارس (ت 395 هـ)، لتكتمل معالمها على يد الزمخشري (ت 538 هـ) في معجم "أساس البلاغة".[6]

وقد سار الفيومي على نهج الزمخشري في اعتبار الأوائل ثم الثواني ثم الثوالث؛ وقسّم "المصباح المنير" إلى أبواب وفق الحرف الأول من الحروف الأصلية للكلمة، وسمّى كل باب منها كتابا. وجعل عددها تسعة وعشرين بابا، أو حرفا، لأنه عقد بابا خاصا للحرف المُركّب (لا)، ووضعه بين بابي الواو والياء. وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن الفيومي قد سبقه بعض اللغويين في جعل الحروف الهجائية تسعة وعشرين حرفا، ولكن باعتبار آخر، وهو ضمّ الهمزة التي تحقق، أو تجعل حرف لين، ومن هؤلاء اللغويين ابن دريـــد (ت 321 هـ) في "جمهرة اللغة"، والأزهري (ت 370 هـ) في "تهذيب اللغة".

ويضع الفيومي الكلمة الزائدة على ثلاثة أصول بعد المادة الثلاثية المشتركة معها في الحرف الثالث ـ إن وجدت ـ، فكلمة بَسْمَل وضَعَها بعد كلمة بسم ، والصهريج بعد الصهر، والمهرجان بعد مهر، ولكن إذا لم تشترك الكلمة الزائدة على الأصول الثلاثية مع المادة الثلاثية الأصول في الحرف الثالث لهما، التزم في ترتيبها الحرف الأول فالثاني، ووضعها في أول الفصل، ومن ذلك مثلا المواد الآتية:

(أذربيجان) نجدها في صدر فصل الألف مع الذال، ويأتي بعدها (إذْ)، ونجد كلمة (سجستان) في صدر فعل السين مع الجيم، ويأتي بعدها (سجد)، و(الرستاق) في صدر فصل الراء مع السين، ويأتي بعدها (رسب)، و(الوسواس) يأتي بعدها (الوسط)، و(العسكر) قبل(عسب) إلخ ... .

وقد أشار الفيومي إلى ما ذهب إليه في هذا السياق بقوله : "وأما الأسماء الزائدة على الأصول الثلاثة، فإن وافق ثالثها لام ثلاثي ذكرته في ترجمته نحو البرقع فيذكر في برق، وإن لم يوافق لام ثلاثي فإنما ألتزم في الترتيب الأول والثاني، وأذكر الكلمة في صدر الباب، مثل (اصطبل)".[7]

ودائما في سياق وضع الكلمة الأصلية في مكانها، فقد دأبت معاجم اللغة العربية في ترتيب المواد المعجمية على إعادتها إلى أصولها إن تحوّلت عنها، فإن كانت عين المادة ألفا منقلبة عن واوأو ياء عادت إلى أصلها الواوي أو اليائي في وضعها المعجمي، فكلمة (آب) موضعها فصل الألف والواو والباء، وكلمة (باع) موضعها فصل الباء والياء والعين.

أما الفيومي فقد خالف المعاجم في وضع المواد المهموزة العين، حيث انتهج في ذلك طريقة صرفية، أي اعتمد حركة ما قبل الهمزة، فإن كانت كسرة ألحقها باليائية العين (فكلمة بئر وضعها في فصل الباء والياء)، وكذلك الكلمة المهموزة العين المفتوح ما قبلها (فكلمة رأس وضعها أيضا في فصل الراء والياء). يقول الفيومي في هذا السياق : "وإن وقعت الهمزة عينا وانكسر ما قبلها جعلتها مكان الياء نحو البير والذيب، وإن انضم ماقبلها جعلتها مكان الواو لأنها تسهل إليها نحو البوس. وكذا إن انفتح ما قبلها لأنها تسهل على الألف والألف المجهولة كواو كالفاس والراس، على أنهم قالوا : الهمزة لا صورة لها وإنما تكتب بما تسهل إليه".[8]

أما الذي سار عليه أغلب المعجميين فهو مراعاة الهمزة غير ملتفتين إلى حركة ما قبلها.

مميزات المصباح المنير

ما يلفت انتباه مستعمل هذا الكتاب، هو حرص الفيومي الشديد على ضبط صور المادة بوسائل شتى . ومن سمات هذا الضبط التمثيل بلفظ مشهور للدلالة على وزن كلمة غير مشهورة، كقوله : (الزّندِيق مثل قِنديل)، (الزُّنّار .. وِزان تُفاح)، (السِّماد وِزان سَلام)، (السِّماط وِزان كتاب)، (النُّغَر وِزَان رُطَب)، (الهُبَع وزان رُطَب)، (الوَلْيُ مثال فَلْسٍ)، (الوِئام مثل الوفاق وَزْنا ومعنى).

وقد يضبط جمع الكلمة كذلك بوزن مشهور كقوله : (إماء وِزان كِتاب... وقد تجمع (أَمَوات) مثال (سَنَوات)، (الإهاب ... والجمع (أُهُبٌ) بضمّتين على القياس مثل كتاب وكُتب)، (البُرْمَةُ : القِدْر من الحجر والجمع (بُرَم) مثل غُرفة وغُرَف)، (الجَنين .. والجمع (أَجنّة مثل دليل وأدِلّة)، (المِشْوَذ... العِمامة والجمع (مَشَاوِذ) مثل مِقْوَد ومَقاوِد)، (العَرْش... والجمع (عُروش) مثل فَلْس وفُلوس)، (والنَّكْبَة المُصيبة والجمع (نَكَبات) مثل سَجْدَة وسَجَدات)، (الوِزْر : الإثم ... والجمع (أَوْزار) مثل حِمْل وأَحْمال).

وكثيرا ما ينص الفيومي على نوع الضبط، فيقول : (الأَوان : الحين بفتح الهمزة، وكسرها لغة...)، (البَدَل : بفتحتين و(البِدْل) بالكسر و(البديل) كُلُّها بمعنى ...)، (البُؤْس : بالضم وسكون الهمزة : الضُّرّ)، (الخَلْسَة : بالفتح المَرّة، و(الخُلْسَة) بالضم ما يُخْلَس)، (الصُّوان : بضم الصاد وكسرها ... وهو ما

يُصان فيه الشيء)، (الغِرَّة : بالكسر الغفلة، و(الغُرَّة) بالضم : من الشَّهْر وغيره أوّلُه)، (المَلبَس بفتح الميم والباء مثل اللباس ...).

وعندما يكون بصدد الأفعال، فإنه يضبطها بالتمثيل بأفعال متداولة مشهورة الضبط، وقد يورد مصادرها كذلك في التمثيل، كقوله : (بَزَغ البَيْطار والحاجِم (بَزْغًا) من باب قتل : شَرَط وأسال الدم)، (بَسَم (بَسْمًا) من باب ضرب : ضحك قليلا من غير صوت)، (حَمَيْتُ المَكانَ (حَمْيًا) من باب رمى و(حِمْيَةً) مَنَعْتُه عنهم)، (خَلَدَ بالمكان (خُلُودًا) من باب قعد : أقام)، (زاح الشيءُ عن موضعه (يَـزُوحُ) (زَوْحًا) من باب قال و(يَزيحُ) (زَيْحًا) من باب سار : تنحّى، وقد يُستعمل مُتعدّيا بنفسه فيُقال (زُحْـتُه) والأكثر أن يتعدّى بالهمزة فيُقال (أَزَحْتُه) (إزَاحَةً)، (شَمِلَهم الأمرُ شَمَلاً من باب تعب : عَمّهم، وشَمَلَهم (شُمُولاً) من باب قعد لغة)، (كَرَعَ في الماء (كَرْعًا) من باب نفع و(كُرُوعًا) شَرِبَ بفيه من موضعه...)، (مارَهُم (مَيْرًا) من باب باع : أتاهم (بالمِيرة) بكسر الميم وهي الطعام)، (نَمَى الشيءُ (يَنْمِي) من باب رمى (نماءً) بالفتح والمدّ : كَثُرَ، وفي لغة (يَنْمُو) (نُمُوًّا) من باب قعد)، (وَعَيْتُ الحَديثَ (وَعْيًا) من باب (وَعَدَ) حَفِظْتُهُ وتَدَبَّرْتُهُ).

إن هذه العيّنة من النماذج المتعلقة بالضبط، تبيّن حرص الفيومي على إرشاد الدارس إلى النطق السليم للفظة محل الشرح، والأخذ بيده مع الصيغ المختلفة للمادة واشتقاقاتها حتى يقف على أصلها، ويتعرف على دلالاتها .

و في هذا الصدد، لا يفوتنا أن نعرّج على منهج الفيومي في وضع المواد محل الشرح، وما يلاحظ في إيراد هذه المواد هو عدم التزام الفيومي بصورة واحدة، إذ قد ترد المادة في صورة اسم معرّف بأداة التعريف، كقوله : (الإشْفَى : آلة الإسكاف)، (البُرْنُس : قَلَنْسُوَة طويلة والجمع البَرَانِس)، (البَلَحُ : ثَمَرُ النخل ما دام أخضرَ قريبا إلى الاستدارة ...)، (الخِبُّ بالكسر الخَدَّاع).

وقد ترد المادة في صورة الفعل متصلا بفاعله وبمصدره، وبمفعوله المباشر أو غير المباشر (بواسطة حرف الجر)، كقوله : (أَزِفَ الرّحيلُ (أَزَفًا) من باب تعب و(أُزُوفًا) دنا وقرُب، و"أَزِفَت الآزِفَةُ" دنَت القيامة)، (بَرْعَمَ النبتُ (بَرْعَمَةً) استدارت رؤوسُه وكثُرَ ورقُهُ)، (تاحَ الشيءُ (تَيْحًا) من باب سار : سَهُلَ وتَيَسّرَ، و(أتاحه) الله تعالى (إتاحَةً) يَسّرَهُ)، (راغ الثعلب (رَوْغًا) من باب قال و(رَوَغَانًا)، ذهب يمنة ويسرة في سرعة خديعة فهو لا يستقرّ في جهة...)، (عَبَّ الرّجُلُ الماءَ (عَبًّا) من باب قتل شَرِبَه من غير تنفّس)، (عَصَمَه الله من المكروه (يَعْصِمُهُ) من باب ضرب : حَفِظَهُ ووَقَاه)، (فَطَرَ الله الخَلْقَ (فَطْرًا) من باب قتل خَلَقَهم، والاسم الفِطرَة بالكسر..)، (قاف الرَّجُل الأثَرَ (قَوْفًا) من باب قال : تَبِعَهُ و(اقْتافَه) كذلك فهو قائف...)، (لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به (أَلْحَقُ) من باب تَعِب (لَحَاقًا) بالفتح أدرَكْتُه...)، (نصَحْتُ لزَيْد (أَنْصَحُ) (نُصْحًا) و(نَصيحَة) : هذه اللغة الفصيحة وعليها قوله تعالى : "إن أَرَدْتُ أن أَنْصَحَ لكم"، وفي لغة يتعدى بنفسه فيُقال : (نَصَحْتُه) : وهو الإخلاص والصدق والمشورة والعمل، والفاعل : (ناصحٌ) ...)، وقد ترد المادة في صورة المصدر كقوله : (الظنّ : مصدر من باب قَتَل وهو خلاف اليقين ..)، و(العَنَت: الخطأ وهو مصدر من باب تَعِب)، و(القَذَر، الوسخ وهو مصدر "قَذِرَ" الشيء فهو "قَذِرٌ" من باب تَعِب، إذا لم يكن نظيفا)، و(القُنُوت مصدر من باب قَعَد : الدُّعاء ويُطلق على القيام في الصّلاة ...)، و(... (الجَهْدُ) بالفتح لا غير النهاية والغاية، وهو مصدر من (جَهَدَ) في الأمر (جَهْدًا) من باب نَفَع، إذا طلب حتى يبلغ غايته في الطلب)، و(الهَمْسُ : الصَّوْتُ الخَفِيّ وهو مصدر (هَمَسْتُ) الكَلامَ، من باب ضرب : إذا أخفيته ...).

وإذا كان الأصل في العمل المعجمي هو وضع المادة أولا في صيغة الإفراد ثم إعطاء جمعها، فإن الفيومي في بعض المواضع قد أورد المادة في صورة الجمع

ثم أعطى بعد ذلك صيغتها الإفرادية، ومن ذلك قوله : (الأَثْلُ : شَجَر عظيم لا ثَمَر له، الواحدة (أَثْلَةُ) ...)، و(الإجّاص: مشدّد، معروف، الواحدة (إجَّاصة...) و(الخَشَف : أَرْدَأ التّمر ... الواحِدَة (خَشَفَةُ)...)، و(الذُّباب : جمعه في الكثرة (ذِبّانٌ) ... وفي القِلّة (أَذِبَّةٌ) الواحدة : (ذُبَابَة) ، و(السُوسُ : الدُّود الذي يأكل الحَبَّ والخشَبَ، الواحدةُ (سُوسَةٌ)، و(شَوْكُ الشَّجَرَة مَعروفٌ، الواحدة (شَوْكَةٌ)، و(العِيس : إِبِلٌ بِيضٌ في بَياضها ظُلْمَةٌ خَفِيَّةٌ، الواحِدَة (عَيْسَاءُ)، و(الهَمَجُ : ذُبابٌ صغير كالبعوض يقع على وُجوه الدَّوابِّ، الواحدة (هَمَجَةٌ)... ويُقال للرَّعَاع (هَمَجٌ) على التشبيه)، و(اليَمَامُ : قال الأصمعي هو الحَمَام الوحشي، الواحدة (يَمَامَةٌ)...).

ومن الطبيعي أن يتتبع الفيومي صيغ المادة المختلفة، ولو بصورة موجزة، فقد أورد من مشتقاتها ما رآه مستعملا أو يحقق الغرض، فأشار إلى ذلك بقوله: "واقتصرت من تلك الزيادات على ما هو الأهم ولا يكاد يُستغنى عنه"[9]، ويمكن في هذا السياق إيراد المثل الآتي : (عَمَدْتُ للشيء (عَمْدًا) من باب ضَرَب و(عَمَدْتُ) إليه قَصَدْتُ و(تَعَمَّدْتُهُ) قَصَدْتُ إليه أيضا... ـــقال فعلتُ ذلك (عَمْدًا) على عَيْنٍ و(عَمْدَ عَيْنٍ) أي بِجدٍّ ويقين ... وعَمَدْتُ الحائط (عَمْدًا) دَعَمْتُهُ و(أَعْمَدْتُهُ) بالألف لغة و(العِمَادُ) ما يُسْنَدُ به، والجمع (عَمَدٌ) بفتحتين، و(اعتَمَدْتُ) على الكتاب ... و(العُمْدَةُ) مثلُ (العِماد) وأنت (عُمْدَتُنَا) في الشدائد أي مُعْتَمَدُنا...).[10]

غير أن الإيجاز في شرح صيغ المادة المختلفة يختل عنده في بعض المواضع، والمتمثلة أساسا في المواد التي لها علاقة بأحكام الشريعة الإسلامية، أو بمسائل اللغة بشكل عام؛ فيعمد الفيومي إلى تمكين القارئ من الاطلاع على كثير من المعاني الشرعية والمصطلحات الفقهية، وكذا تنويره ببعض الأحكام التي قد تفيده في دينه ودنياه .

ولا غرابة في تسليط الضوء على هذه المسائل في هذا المعجم، لأن هدف صاحبه كان في الأساس شرح غريب "الشرح الكبير" للرافعي، وهو كما سبق ذكره في فقه الشافعية؛ "وبهذا اشتمل معجمه المختصر على كثير من الاستطرادات والتفصيلات التي تعني الفقيه والنحوي أو الدارس المتخصص عموما أكثر مما تعني الطالب العادي، فضلا عن الناشئ المبتدئ ؛ وتجعل من الكتاب أقرب في حقيقته إلى المعاجم الخاصة منه إلى المعاجم اللغوية العامة"[11].

والأمثلة على هذه القضايا كثيرة ومتعددة بحيث قد لا تخلو منها صفحة من صفحات المعجم. ومن ذلك مثلا : "الخَصْرُ : من الإنسان وَسَطُهُ وهو المُسْتَدِقُّ فوق الوَرِكَيْنِ والجَمْعُ (خُصُورٌ) مثلَ فَلْسٍ وفُلُوسٍ. و(الاختصارُ) و(التَّخَصُّرُ) في الصلاة : وضع اليد على الخَصْرِ. و(اختَصَرْتُ) الطريقَ، سَلَكْتُ المأخذ الأقرب، ومن هذا (اختِصَارُ) الكلامِ وحقيقتُه الاقتصارعلى تقليل اللفظ دون المعنى، ونُهِيَ عن (اختِصَارِ) السَّجْدَةِ، قال الأزهري يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَخْتَصِرَ الآية التي فيها السُّجُودُ فيَسْجُد بها، والثاني أن يقرأ السورة فإذا انتهى إلى السجدة جاوزها و لم يسجد لها ...".[12] وهناك أمثلة يطول فيها الشرح حيث يتناولها الفيومي من شتى الجوانب اللغوية والشرعية، ويناقشها إلى الحد الذي يزيل إبهامها ويعطي الرأي الفاصل والأنسب في دلالتها.

كما يحفل هذا الكتاب بمسائل كثيرة في اللغة والنحو، يساهم الفيومي بمناقشتها، وإيراد أقوال العلماء فيها، بتسليط الضوء الكافي في شرح الدلالات، وإزالة الغموض على كثير من المشكلات. وقد لا تخلو مادة في "المصباح المنير" من التعرض لقضايا صوتية أو صرفية أو نحوية، ومراجعة سريعة لأي منها، كافية لتوضيح الجهود التي بذلها الفيومي في هذه الجوانب وبالتالي إعطاء مكانة متميزة لكتابه.

وبما أن هذا الكتاب يعد ـ مقارنة بأغلب المعاجم العربية ـ من الأعمال الموجزة، فإنني سأحاول أن أركّز على الجانب الدلالي في الشرح والتفسير، وما امتاز به في إفادة القارئ بالتعرّض للمادة اللغوية من جوانب متعددة ولكن كذلك بدقة وإيجاز، وهي طريقة لا تبعث الملل أثناء المطالعة في هذا المعجم بقدر ما تشدّ القارئ إلى ذلك الحشد الموجز والمركّز من المعلومات، المدعَّمة بطائفة من النصوص والاستشهادات.

وفي هـــذا المجال أشير في البداية إلى وسائل تفسيره للمعنى، حيث يستعين ـ كأغلبية المعاجم ـ باللفظ المرادف لإيضاح المعنى، يقول مثلا : (بَغَتَةً: (بَغْتاً)... فاجأه، وجاء (بَغْتَةً) أي فجأة ...)[13]، (البَهَاء : الحُسْن والجَمَال...)[14]، (البال : القلب، وخطر (بِبَالي) أي بقلبي ...)، (الحَتْف : الهلاك)[15]، (قَلَعْتُه : نزَعْتُه)[16]، (المُدية :الشَّفْرَة)[17] ؛ أو يوظف العبارة في شرح المعنى، كقوله مثلا: (الإشفى آلة الإسْكاف)[18]، (البَقْلُ : كلّ نبات اخضرّت به الأرض)[19]، (التَّلْعَة : مجرى الماء من أعلى الوادي ...)[20]، (العَفَر : وجه الأرض ويطلق على التراب ...)[21]، (قَطَطْت القلم : قطعت رأسه ...)[22] . وقد اكتفى الفيومي في بعض المواضع بكلمـــة (معروف) في شرح بعض الكلمات، لشيوعها على ألسنة العامة والخاصة من الناس، لذلك نجده يقول مثلا : (الإكاف : للحمار معروف)، (الببّغاء : طائر معروف)، (العُطاس: معروف)، (الهراوة : معروفة)، (الياسمين : مشموم معروف). ويستعين الفيومي كذلك باللفظ المخالـــف (وأحيانا يسميه الضد أو النقيض) في أثناء شرحه لكثير من الألفاظ، يقول مثلا: (الحَرَكة خلاف السّكون)، (الذكورة خلاف الأنوثة)، (السماحة نقيض الملاحة)، (رَفَع خلاف خَفَض)، (حَقَن خلاف هَدر)، (الرُّشد خلاف الغيّ)، (الظن خلاف اليقين)، (شَقِي ضد سَعِد)، (اليد الشمال خلاف اليمين)، (العدل خلاف الجور)، (العبد خلاف الحُرّ).

ويتتبع الفيومي معاني الألفاظ، فيشير إلى ما يحمله اللفظ الواحد من دلالات فمن ذلك قوله مثلا : (فرِح : (فرَحًا) فهو(فرِح) و(فَرْحان)، ويُستَعمَل في معانٍ أحَدُها، الأشر والبَطَر وعليه قوله تعالى : "إن الله لا يُحب الفَرحين" (القصص/76)، والثاني : الرِّضا وعليه قوله تعالى : "كُلّ حزب بما لديهم فرحون" (المؤمنون/54 واللفظ في الروم/32)، والثالث :السُّرُور وعليه قوله تعالى : "فرِحين بما آتاهم الله من فضله" (آل عمران))[23].

وقد كان تناوله لمعاني اللفظ الواحد ـ إن وجد ـ بارزا في الكتاب، إلا أنه ينبغي الإشارة هنا، أن تعرّضه لظاهرة الأضداد في ألفاظ اللغة كان قليلا، وقد يعود ذلك لقلة الألفاظ المتضادة في حد ذاتها؛ لذلك كانت الأمثلة ـ في هذا المعجم ـ قليلة، منها قوله مثلا : (والبَيْن : بالفتح من الأضداد يُطلق على الوَصْل وعلى الفُرْقة ...)[24]، (الجَوْن يُطْلق بالاشتراك على الأبيض والأسود ...)[25].

إضافة لما ذكر سابقا، من تعدد وسائل التفسير، يغوص الفيومي في الأصل الدلالي لكثير من الألفاظ، فقد يتعرض إلى ناحية بنائها، ويشير إلى الأصل الذي تركبت منه، يقول مثلا : (بَسْمَلَ : بَسْمَلة إذا قال أو كتب بسم الله، وأنشد الأزهري :

لقد بَسْمَلَتْ هِنْدٌ غَدَاةَ لَقيتها ∆ فيَا حبَّذا ذاكَ الدَّلالُ المُبَسْمِلُ

ومثله حَمْدَل وهلَّل وحسبَل وحيْعَل وسَبْحَل وحَوْلَق وحوْقَلَ إذا قال (الحَمْدُ لله)، و(لا إله إلاّ الله)، و(حسبنا الله)، و(حيّ على الصّلاة)، و(سبحان الله)، و(لا حول ولا قوة إلا بالله) ...).

وقد يعود إلى الأصل الدلالي، وكيف أُطلق اللفظ على المعنى في بداية الوضع اللغوي، فيقول مثلا : (وقولهم أحْرَزَ (قَصَبَ) السّبْق أصلُه أنّهم كانوا ينصِبُون في حَلْبَة السِّبَاق قَصَبَةً فمَن سبَقَ واقتلعها وأخذها لِيُعلَمَ أنّه السابق من

غير نزاع ثم كثُرَ حتى أُطْلِق على المُبَرِّز والمُشَمِّر)[26]؛ ويقول في موضع آخر : (المِنْحَة : بالكسر في الأصل الشاة أو الناقة يُعطيها صاحبُها رجُلاً يَشْرَب لَبَنَها ثم يردّها إذا انقطع اللبن، ثم كثُر استعماله حتى أُطلِق على كلّ عَطاء)[27]؛

وبعد إيراد معاني لفظة (الأهل) يضيف قائلا : (وقولُهم: (أهْلا وسهْلا ومرْحَبًا) معناه أتيت قومًا أهْلاً وموضعًا سهْلا واسعا فابسُط نفسَك واستأنس ولا تستوحش)[28] .

هذا هو منهج الفيومي ـ ذكر الأصل الدلالي ـ في مواضع لا يمكن حصرها، فهو يشير مثلا إلى أصل تسمية الشهور العربية : (رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة...)[29]، أو يعطي الأصل الدلالي لعبارة (جاء في عقبِه)[30]، إلخ ... .

وفي السياق ذاته، عمد الفيومي إلى شرح الأصل الدلالي لكثير من أسماء الأعلام العربية، ويمكن الإشارة هنا إلى بعض الأمثلة، وهي كثيرة جدا في معجمه، يقول مثلا : (الأَوْسُ : الذئب وسُمِّيَ به وبمُصَغّره أيضا)[31]، و(عُكاشة : اسم رَجُل من الصّحابة ...، وفي التهذيب العُكّاشة بالتثقيل وبالتخفيف العنكبوت وبها سُمّي الرّجُل)[32]، (الحَنَفُ :الاعوجاج في الرِّجْل... فالرَّجُل أحْنَف وبه سُمّي)، و(أُسَامة : عَلَم جنس على الأسد ... وبه سُمّي الرّجُل)[33]، و(دَرَمَ : (دَرْمًا) ... مشى مَشْيًا مُتقارِب الخُطا فهو (دارِم) وبه سُمِّيَ (دارِم) أبو قبيلة من تميم والنسبة (دارمي)[34]، و(الليث : الأسد وبه سُمِّيَ الرَّجُل)[35]، و(وأَلَ : إلى الله (يَئِلُ) ... الْتَجَأَ وباسم الفاعل سُمِّيَ ومنه (وائِلُ بن حُجْر) وهو صحابي و(سَحْبَان وائل ...)[36].

وتبرز عناية الفيومي أكثر بالتدقيق في المعاني والإشارة إلى الأصل الدلالي لكثير من المواد اللغوية، في تعرّضه أيضا إلى الفروق الدلالية بين الألفاظ المتقاربة في المعنى، ومن الأمثلة على ذلك قوله مثلا : (... وفرّقوا بين الخائن

والسارق والغاصب بأن (الخائن) هو الذي خان ما جُعِل عليه أمينا، والسارق من أخذ خُفْيَةً من مَوْضِعٍ كان ممنوعا من الوصول إليه، وربما قيل كل سارق خائنٌ دون عكس، والغاصب من أخذ جهارا معتمدا على قوته)[37]، وعلى هذه الشاكلة، ذكر الفرق بين مسكين وفقير[38]، وبين كُدْس وعُرْمَة[39]، وبين الظل والفيء[40]... الخ.

وهي إشارات لغوية دقيقة مدعمة بآراء العلماء، حشدها الفيومي في معجمه مستدلا ببعضها، ومستقلا برأيه في بعضها الآخر، ليضع بين أيدينا مصباحه وقد سلّط به الضوء على الغامض من الدلالات. ويحفل المعجم من ناحية أخرى بطائفة كبيرة من أسماء النبات والحيوان ولكن بشكل موجز ودقيق، مع التعرّض لضبطها، وبما يطرأ على صِيَغِـها من تذكير وتأنيث، أو إفراد وتثنية وجمع، أو الإشارة إلى أصلها العربي أو أنها معرّبة، إلى غير ذلك من المسائل المختلفة مع التدعيم بالشواهد اللازمة، كما فعل مع بقية المواد اللغوية.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال، تعرّض الفيومي إلى الألفاظ التي انحدرت إلى العربية من لغات مجاورة، وأصبحت متداولة في المكتوب والمنطوق، وبين العامة والخاصة، وإن كان أغلبها ـ حسب ما ورد في "المصباح المنير" ـ فارسي مُعرّب، يقول الفيومي مثلا : (الأستاذ: كلمة أعجمية ومعناها الماهر بالشيء، وإنما قيل أعجمية لأن السّين والذال المعجمة لا يجتمعان في كلمة عربية...)[41]، و(الإستبرق: غليظ الديباج : فارسي مُعرّب)[42]، و(الباذنجان : من الخضراوات بكسر الذال وبعض العرب يفتحها فارسي مُعرّب)[43]، و(الصّندلة : كلمة أعجمية، وهي شبه الخُفّ)[44] و(الإجّاص : مشدّد، معروف، الواحدة (إجاصة) وهو مُعرّب لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة عربية)[45]، و(النَّرْد : لعبة معروفة وهو معرّب) ؛ والألفاظ المُعرّبة كثيرة في هذا

المعجم، و لم يعدّها الفيومي كذلك استنادا إلى رأي العلماء فقط، بل يتضح في كثير من المواضع أنه على دراية ببناء اللفظ العربي الأصيل، وبإمكانه التمييز بينه وبين اللفظ الدخيل، لذلك وجدناه يشير إلى بعض العلامات التي يُعرف بها اللفظ المُعَرَّب، كاجتماع السين والذال، أو الجيم والقاف، أوالتاء والطاء، أو الجيم والصاد، إلى غيرها من العلامات التي عالجها علماء اللغة في باب المُعَرَّب.(46)

بقي أن أشير إلى عامل مهم، ساهم في تدعيم شروح الفيومي للمواد اللغوية المختلفة، ألا وهو الشواهد التي أوردها في سياق الشرح والتفسير، وبقدر ما كان المعجم "موجزا" كانت الشواهد مركزة ومختصرة، ويأتي على رأسها الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث النبوي الشريف، وبعيون كلام العرب : من شعر ونثر.

إن استقاء الشواهد من معين العربية الصافي، ودعمه باجتهادات علماء اللغة، الذين أخذ عن نحو سبعين من مؤلفاتهم ـ كما أشرت في بداية هذا المقال ـ، قد أثمر في النهاية معجما شق طريقه بثبات مع بقية المعاجم اللغوية الأخرى ـ وإن كان موجزا وليس عملا موسوعيا ـ، ولكنه مع ذلك أفاد معاصريه، ولا يزال يقدم خدماته للباحثين والدارسين.

غير أنه يجب التنبيه إلى أن "المصباح المنير" من مؤلفات القرن الثامن الهجري، وإذا كانت فائدته معلومة في جوانب اللغة المختلفة، كما سبق التفصيل في هذا المقال، فإنه يفتقر طبعا إلى الألفاظ الحديثة وكذا ألفاظ العلم والحضارة، التي ظهرت بعد عصر الفيومي إلى اليوم.

لذلك ومن أجل الاطّلاع على هذا النوع من الألفاظ، ينبغي الاستعانة بأعمال معجمية حديثة، يأتي على رأسها مثلا "المعجم الوسيط" لمجمع اللغة

العربية بالقاهرة، أو حتى "المعجم الوجيز" للمجمع نفسه، وقد نعود إلى هذين العملين أو أحدهما في مقال لاحق بحول الله.

طبعات "المصباح المنير"

يبدو أن أقدم طبعة لهذا المعجم تعود إلى سنة 1854 م وذلك عن المطبعة الأميرية بالقاهرة[47]، ثم توالت الطبعات المختلفة بعد ذلك، منها تلك التي صدرت بالقاهرة بتصحيح مصطفى السقا، عن شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي سنة 1950 م في جزأين، ثم صدرت مرة أخرى سنة 1956 م[48]، كما صدرت طبعات أخرى في بيروت وطهران، ولكن تبقى أهمّها طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة 1977 م، بتحقيق عبد العظيم الشناوي، في مجلد واحد.

إن تعدّد طبعات هذا المعجم، خلال القرنين الماضيين (19 - 20 م) كما ورد أعلاه، تبيّن مدى أهمّيته وكثرة تداوله بين الباحثين والدارسين، وهو ما بوّأه ـ حديثا ـ مكانة متميّزة ضمن بقية المعاجم اللغوية التي عرفتها المكتبة العربية.

الهوامش

1- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق عبد العظيم الشناوي. دار المعارف، القاهرة، 1977، المقدمة : ص م.

2- المصدر نفسه: الصفحة نفسها .

3- معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط 2، 1993 : ص 45، 46. وكذلك صنّف ضمن المعجمات المتخصّصة في موضوع (الفقه)، ينظر في ذلك : معجم المعجمات العربية، وجدي رزق غالي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان . ط 1، 1993 : ص 188، 189 .

4- المصباح المنير للفيومي: ص 711، 712 .

5- المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، (د . ت) : ص 129.

6- ينسب أغلب العلماء هذه المدرسة ـ التي تضع الكلمة وفق أوائل الحروف حسب التهجي الشائع المعروف ـ إلى أبي المعالي محمد بن تميم البرمكي اللغوي (ت 411 هـ) .ينظر في ذلك مثلا :

- مصادر اللغة في المكتبة العربية، عبد اللطيف الصوفي. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة ، الجزائر، (د . ت) : ص 125 - 126.

- المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد. دار الفكر العربي، (د . ت) : ص 129.

- مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. ط 3، 1404 هـ - 1984 م : ص 89 .

7- المصباح المنير، المقدمة : ص ن.

8- المصدر نفسه، المقدمة : ص م.

9- م . ن، المقدمة : ص ن.

10- م . ن : ص 428، 429 .

11- المعاجم اللغوية العربية، أحمد محمد المعتوق . المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1420 هـ - 1999 م : ص 145 .

12- المصباح المنير : ص 170 .

13- وينظر : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ط 2، دار الفكر، (د . ت) : 64/1.

14- المرجع نفسه : 75/1.

15- م.ن : 154/1.

16- م.ن : 755/2.

17- م.ن : م.ن : 859/2.

18- م.ن : 19/1.

19- م.ن : 66/1.

20- م.ن : 86/1.

21- م.ن : 610/2.

22- م.ن : 744/2.

23- المصباح المنير : ص 466.

24- وينظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي. شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه : محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت) : 392/1.

25- المرجع نفسه : 387/1، 390؛ وبنظر : فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي. شرحه وقدّم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. 1422 هـ - 2002 م : ص 348.

26- المصباح المنير : ص 504.

27- المصدر نفسه : ص 580، وينظر : فقه اللغة للثعالبي : ص 345.

28- المصدر نفسه : ص 28، وينظر : أدب الكاتب لابن قتيبة. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل، مطبعة السعادة بمصر. ط 4، 1382 هـ - 1963 م : ص 42.

29- المصدر نفسه : ص 107، 108.

30- م.ن : ص 419.

31- ينظر : أدب الكاتب : ص 57، وينظر : الاشتقاق لابن دريد. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. منشورات مكتبة المثنى، بغداد، العراق؛ دار المسيرة، بيروت، لبنان. ط2، 1399 هـ، 1979 م : ص 133؛ وينظر : الوافي في الأسماء العربية ومعانيها، بسام محمد عليق. دار الحمراء للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع، بيروت، لبنان . ط1، 2001 م : ص 44.

32- الوافي في الأسماء العربية : ص 222.

33- أدب الكاتب : ص 58؛ وينظر : الوافي في الأسماء العربية : ص 34.

34- أدب الكاتب : ص 63، الاشتقاق : ص 106، الوافي في الأسماء العربية : ص 113.

35- الوافي في الأسماء العربية : ص 284.

36- المرجع نفسه : ص 347.

37- المصباح المنير : ص 184، وينظر : أدب الكاتب : ص 30.

38- المصدر نفسه : ص 283، وينظر : أدب الكاتب : ص 29، 30؛ الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت. ط4، 1400 هـ - 1980 م : ص 170؛ فقه اللغة للثعالبي : ص 104، 105.

39- المصدر نفسه : ص 527.

40- م.ن : ص 385، وينظر : أدب الكاتب : ص 23، 24، الفروق في اللغة: ص 304.

41- ينظر : المعجم الوسيط : 17/1.

42- ينظر : المزهر : 280/1، المعجم الوسيط : 17/1.

43- المزهر : 284/1، المعجم الوسيط : 36/1.

44- المزهر : 276/1، المعجم الوسيط : 525/1.

45- المزهر : 271/1، المعجم الوسيط : 17/1/1.

46- ينظر في ذلك مثلا : المزهر 268/1 – 294.

47- ينظر : معجم المعجميات العربية، وجدي رزق غالي : ص 188.

48- المرجع نفسه : ص 189.

المصادر والمراجع

1 – القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع. مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1412 هـ.

أ/ المصدر

2 – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المُقْري الفيومي. تحقيق عبد العظيم الشناوي. دار المعارف، القاهرة، 1977 م.

ب/ المراجع

3 – أدب الكاتب لابن قتيبة. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل، مطبعة السعادة بمصر. ط4، 1382 هـ – 1963 م.

4 – الاشتقاق لابن دريد. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. منشورات مكتبة المثنى، بغداد، العراق؛ دار المسيرة، بيروت، لبنان. ط2، 1399هـ، 1979م.

5 – الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري. منشورات دار الآفاق الجديدة ن بيروت. ط4، 1400 هـ – 1980 م.

6 – فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي. شرحه وقدم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. 1422 هـ – 2002 م.

7 – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي. شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه : محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت) .

8 - مصادر اللغة في المكتبة العربية، عبد اللطيف الصوفي. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر (د.ت) .

9 - المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد. دار الفكر العربي، (د.ت).

10 - المعاجم اللغوية العربية، أحمد محمد المعتوق. المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1420هـ - 1999 م.

11 - معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط2، 1993 م.

12 - معجم المعجمات العربية، وجدي رزق غالي. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان. ط1، 1993 م.

13 - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ط 2، دار الفكر، (د.ت).

14 - مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان . ط 3، 1404 هـ - 1984 م.

15 - الوافي في الأسماء العربية ومعانيها، بسام محمد عليق. دار الحمراء للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع، بيروت، لبنان. ط 1، 2001 م.